

نيلز نيلسون موسى: أسير نرويجي في مدينة الجزائر (1769-1772)

ترجمة وتعليق: د. لخضر بوطبة

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

ملخص:

نقدم الجزء الأول من ترجمتنا من اللغة الفرنسية لكتاب "أسير نرويجي في مدينة الجزائر (1769-1772)" للكاتب النرويجي الأسير "نيلز موسى"، والذي يُعد من المصادر الأجنبية النادرة في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني على أن نقوم بنشر الجزئين الآخرين في الأعداد القادمة من هذه المجلة الموقرة، مع الملاحظة أننا حافظنا على ترتيب فصول الكتاب وعناصره كما وردت في الكتاب الأصلي. والكتاب يزخر بالمعلومات التاريخية المتنوعة القيمة التي لا يمكن العثور عليها في مصادر أخرى. وعلاوة على المعلومات المتنوعة التي يزخر بها الكتاب حول إيالة الجزائر خلال القرن الثامن عشر، فإنه يؤرخ كذلك لحرب الجزائر والدانمارك التي جرت وقائعها سنة 1770م، كما يؤرخ للعلاقات الجزائرية الدانماركية.

الكلمات المفتاحية: يلز موسى، الأسر، مدينة الجزائر، المعاهدة، الحرب، الأسطول، القرصنة، الديوان، الداوي محمد بن عثمان.

Abstract:

We present the first part of our translation of the book "Un esclave norvégien à Alger (1769-1772)" from the French language written by the captive Norwegian Nils Moss, which considered as one of the few foreign sources of Algerian history during the Ottoman era. Noting that we have retained the order of the chapters and elements of the book as they appeared in the original book. The book is rich in valuable historical information that cannot be found in other sources. In addition, the book is rich of various information about the regency of Algiers in the eighteenth century, it also tells us about the war between Algeria and Denmark which took place in 1770, as well as the Algerian-Danish relationship.

Keywords: Nils Moss, Captivity, the City of Algiers, Treaty, War, Fleet, Piracy, Divan, Dey Muhammad Ibn Othman.

1- تقديم الكتاب:

الكتاب الذي نضعه بين القراء من الحجم الصغير يشتمل على 136 صفحة، ويتألف من مقدمتين واجدة للمترجم والثانية لناشر النسخة الفرنسية، مع تصدير لأستاذ التاريخ العثماني مولاي بلحميسي رحمه الله¹، وقسمين وملاحق. والكتاب يتناول واحدة من أحسن المراحل التي مرت بها الجزائر تحت الحكم العثماني، ويتناول فترة من أزهى الفترات وعهد من أحسن العهود، إنه عهد الداوي محمد بن عثمان باشا² الذي يعتبر من بين أحسن الدايات الذين تعاقبوا على إيالة الجزائر خلال العهد العثماني، حيث عرفت الدولة في عهده الاستقرار والقوة، ومؤلف هذا الكتاب يعتبر شاهد على هذه الفترة، فقدم لنا صورة تبدو لنا خالية من كل الأحكام المسبقة التي اعتدنا مصادفتها في الكتابات الأوروبية الأخرى لا سيما منها المذكرات الشخصية.

ارتأينا أن نقدم ترجمة لهذا الكتاب القيم -الذي يعد من المصادر النادرة في تاريخ الجزائر تحت الحكم العثماني- هنا في هذه المجلة الموقرة في أجزاء ثلاثة، مع الملاحظة أننا حافظنا على ترتيب فصول الكتاب عناصره كما وردت في الكتاب الأصلي، والكتاب يزخر بالمعلومات التاريخية المتنوعة القيمة التي لا يمكن العثور عليها في مصادر أخرى. وقد طبعت هذه الترجمة في مطبعة دار البدر الساطع بالعلمة ولاية سطيف، الجزائر، 2019.

¹ أحد أعمدة التاريخ العثماني في الجزائر، كان أستاذ محاضر في جامعة الجزائر وجامعة وهران، توفي رحمه الله سنة 2009 تاركا وراءه عدد هائل من المؤلفات والمقالات والبحوث، ولا سيما في مجال البحرية الجزائرية، اتسمت كتاباته بالعلمية والموضوعية والدقة والتوثيق.

² يجمع الكتاب والمؤرخين على أن الداوي محمد بن عثمان الذي تولى حكم إيالة الجزائر من سنة 1766 إلى سنة 1791م من أحسن الحكام الذين حكطموا إيالة الجزائر، وقد خصه المؤرخ توفيق المدني بتأليف عنوانه: محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766-1791)، م، و، ك، الجزائر، 1986.

2- مقدمة المترجم:

كاتب هذه المذكرات هو البحار نيلز نيلسون موس Niels Nielsen Moss من مواليد عام 1743م في تروندهايم¹ بالنرويج وتوفي سنة 1769م وقع أسيراً في أيدي قراصنة الجزائر حيث تمَّ بيعه كعبد ومكث في الأسر سنتين وسبعة أشهر واثنى عشرة يوماً، وبعد عودته إلى بلده تروندهايم اجتاز امتحان الضباط ثم تزوج. كتب مذكراته حول أسره وتحريره ونشرها سنة 1773 حيث صور فيها مدينة القراصنة وسكانها وحياتهم اليومية، ثم أُعيد طبع الكتاب من طرف متحف تروندهايم البحري سنة 1936. وبعد ذلك قام النادي الأدبي بإعادة طبع هذا الكتاب في المدينة نفسها سنة 1970، وقام أحد الكتاب الفرنسيين بترجمته من اللغة النرويجية إلى الفرنسية مع الملاحظة أنه لم يرد ذكر اسم المترجم في هذه النسخة التي عثرت عليها عن طريق الصدفة حينما كنت في تريبس علمي قصير المدى في باريس بفرنسا أثناء تصفحي لمحتويات مكتبة معهد العالم العربي الذي يقع في حي جيسيو Jussieu، فاطلعت على الكتاب وكنت كمن عثر على كنز ثمين، ذلك أن المذكرات المتعلقة بتاريخ الجزائر خلال العهد العثماني قليلة ونادرة، فقامت على الفور بتصويره لأنني لم أتمكن من اقتنائه حيث لم يكن يعرض في المكتبات الخاصة، ولما عُدت إلى الديار وضعته جانبا لأنني كنت منشغلا حينئذ بتحضير أطروحة الدكتوراه، على أن أعود إليه في يوم ما لأهميته لأنه يعتبر أول كتاب نرويجي يتناول معلومات قيمة وملاحظات نادرة متنوعة حول الجزائر في هذا العهد حسب علمنا.

فلما أنهيت أطروحتي بعون من الله وتوفيقه، قررت ترجمة هذا الكتاب من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية لتمكين قراء اللغة العربية من الإطلاع عليه، وكذلك لقيمته العلمية والتاريخية باعتبار مؤلفه شاهد عيان، وكنت من قبل قد وضعت عدة مشاريع في ترجمة المصادر التاريخية الخاصة بهذه الفترة ومنها كتب لا زالت اشتغل على ترجمتها مثل كتاب المؤرخ الإسباني فراي ديغو

¹ تروندهايم، باللغة النرويجية Trondheim، هي مدينة تقع إدارياً في مقاطعة سور ترونديلاغ في منطقة ترونديلاغ في النرويج، عدد سكانها حسب إحصائية شهر يناير سنة 2008 يبلغ 186.257 نسمة بعد مدينة أوسلو هي المدينة الثالثة بكمبرها في بلد النرويج تقع على مصب نهر (نيديليف) في تروندهايم فيورد، حوالي السبعين كلم من البحر عدا عن ذلك فتروندهايم هو اسم المجمع السكني الذي يحيط بحدود المدينة وضواحيها .

هايدو "التاريخ العام وطبوغرافية الجزائر" Fray Diego de Haido: Tographie et histoire générale d'Alger¹ وكتاب الدبلوماسي الفرنسي لوجي دو طاسي الموسوم بـ: تاريخ مملكة الجزائر Laugier de Tassy: Histoire du Royaume d'Alger، وقد تمكنا من ترجمة كتاب الرحالة الفرنسي جون أندري بيسونال Jean André Peyssonnel الموسوم بـ: "رحلة إلى إيالة الجزائر" Voyage dans la Régence d'Alger²، وكتاب الرحالة والدبلوماسي الفرنسي فونتور دو بارادي Venture de Paradis الذي يحمل عنوان "إيالة الجزائر خلال القرن الثامن عشر" Alger au XVIII^e siècle³، وكتاب مذكرات الأسير البرتغالي جواو كرفالو ماسكاريناس في مدينة الجزائر 1621-1627. João Carvalho Mascarenhas: Esclave à Alger، وكتاب الرحالة الأنجليزي طوماس شو الموسوم بـ: رحلة إلى إيالة الجزائر" Thomas. Shaw: Voyage dans la Régence d'Alger وكلها في انتظار الطبع.

وقد قمت بترجمة هذه المذكرات التي أضعها بين أيدي القراء والتي أرجو أن تنال إعجابهم، حيث كنت حريصا قدر الإمكان على المحافظة على روح النص الأصلي، فكان أسلوب الترجمة بسيطا بعيدا عن التكلف واستعمال المحسنات البديعية، مستعملا الأسلوب التاريخي المعروف، مع التعليق وبعض الشروحات والإضافات على الهامش والتي أشرت إليها بين قوسين بكلمة المترجم. والكتاب يشتمل على قسمين وملاحق، فالقسم الأول خصصه الكاتب للعلاقات الدبلوماسية بين إيالة الجزائر والمملكة المزدوجة الدانو-نرويجية خلال العهد العثماني الذي تميز بعلاقات الجزائر عموما بمختلف الدول والإمارات الأوروبية بعلاقات فريدة من نوعها، حيث كانت هذه الدول تعترف بهيمنة الجزائر على النشاط البحري في البحر المتوسط وترتبط بها بمعاهدات واتفاقيات وتدفع لها الرسوم والإتاوات؛ وفي الوقت ذاته كانت لا تتوانى في شن الغارات البحرية والحملات العسكرية لغزوها والتخلص من تلك الأعباء المالية، وفي الوقت ذاته كانت تقدم لها وتبيع الأسلحة والعتاد الحربي.

¹ traduit de l'espagnol par Monnreau et A Berbrugger, édition bouchène, paris, 1998.

² Edition La Découverte, Paris, 1987.

³ édition Sandbad, Paris, 1983.

كما يفيدنا الكتاب بمعلومات دقيقة وقيمة عن تلك الحملة البحرية الدانو-نرويجية الشرسة التي تعرضت لها مدينة الجزائر سنة 1770، وكيف دافع الداوي محمد عثمان باشا عن هذه المدينة بمساعدة السكان، وكيف رضخت الحكومة الدانو-نرويجية في النهاية للشروط التي وضعها هذا الداوي لإبرام الصلح بين الدولتين، حيث مكن هذا الصلح كاتبنا من التحرر من أسره والعودة إلى بلده. وفي القسم الثاني يروي قصة مأساة وقوعه مع رفاقه في الأسر على يد القراصنة الجزائريين ويقدم لنا وصفا للحياة اليومية للأسرى المسيحيين في مدينة الجزائر بأدق تفاصيلها. وتناول في الملاحق موضوعات متنوعة سياسية ودينية واجتماعية وحتى طبيعية، وذلك بشكل موجز يتناسب مع كونه أسيرا غريبا لا شك أن عامل اللغة قد لعب دورا كبيرا في كون معلوماته سطحية نوعا ما كما سيلاحظ القارئ ولكنه برهن على قوة ملاحظاته وانتباهه الشديد. حيث يزودنا بوصف لمدينة الجزائر والعادات الجنائزية للسكان، والداوي وكيفية تعيينه، والعقوبات والمستشفى والحمامات والاحتفالات والبلاد والحيوانات والطيور والسكان وعباداتهم ولباسهم وأعيادهم ونسائهم، والأسرى والمرابطين والحرس الشخصيين للداوي.

ولا يسعني في الأخير إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى الصديقين عبد العزيز قيبوج أستاذ الأدب العربي بالمدرسة العليا للأساتذة بقسنطينة، والأستاذ أحمد بوضياف مفتش اللغة العربية للتعليم الثانوي بولاية برج بوعريج، وعضو اللجنة الوطنية لإعداد البرامج في مادتي اللغة العربية والتربية الإسلامية على تفضلهما بقراءة هذا الكتاب وتصحيحه لغويا.

3- كلمة الناشر:

تعتبر العلاقات بين الجزائر والنرويج قديمة، وكانت النرويج والمنطقة الشمالية تعرف عند العرب ببلاد المناخ السابع، ومن الممكن جدا أنه كانت لبعض الفايكينغ اتصالات بسكان مدينة الجزائر باعتبارهم كانوا بحارة شجعان، لكن الانطلاقة الفعلية للعلاقات بين الجزائر ومملكة النرويج كانت سنة 1746م، حيث تم توقيع أول معاهدة سلم بين البلدين. وكانت النرويج متحدة حينها مع الدانمارك وتعرف بالمملكة الدانماركية - النرويجية.

وفي القرن الثامن عشر قام البحار النرويجي نيلز موس بنشر مذكراته عن الثلاث سنوات التي قضها في الجزائر كأسير من 1769 إلى 1772م، في أول كتاب يصدر عن الجزائر باللغة النرويجية.

د. لخضر بوطبة نيلز نيلسون موس: أسير نرويجي في مدينة الجزائر (1769 - 1772)

هذه النسخة من الكتاب هي إعادة إصدار الكتاب النرويجي القديم، حيث لا توجد منه سوى نسخة واحدة، ولأول مرة يُترجم الكتاب إلى اللغة الفرنسية بغرض تمكين المهتمين بالتاريخ من الإطلاع عليه. ويعتبر هذا العمل إسهاما مهما للمكتبة الوطنية الجزائرية حسب ماكتبه المؤرخ الجزائري مولاي بلحميسي في تصديره للكتاب.

ويندرج قيام الشركة البترولية النرويجية ستاتوال Statoil بالجزائر منذ 2004 بإعادة نشر الكتاب مترجما إلى اللغة الفرنسية، ضمن إطار دعم وتقوية للعلاقات الثقافية كما يعزز العلاقات التاريخية القائمة بين الجزائر والنرويج كذلك.

توقيع المدير العام لشركة ستاتوال

القسم الأول:

4- تقديم:

أوديسة السفينة جومفري كريستينا 1769-1772

كاتب الرواية هو البحار النرويجي نيلز موس، الذي أبحر مع ثلاثة عشر (13) من رفاقه على متن السفينة جومفري كريستينا ممن ميناء تروندهايم في اتجاه مدينة لشبونة وكانت السفينة تنقل حمولة من الألواح الخشبية، والزفت والحديد، على أمل أن تعود محملة بسلع مختلفة من أماكن أخرى. يأخذنا البحار موس في هذا الجزء من الكتاب في جولة إلى بحر الشمال من إكوسيا إلى إسلندا، ثم رأس فينيستر Fénistère وجزر بيرلينغو Berlingo، على سواحل البرتغال، كان الإبحار في هذه المرحلة من دون متاعب، ولا خوف سوى من هاجسين اثنين: العاصفة الهوجاء، ومزاج الرياح المتقلب تارة قوية وتارة أخرى هادئة.

وفجأة حدث لقاء غير متوقع، غير اتجاه السفينة وتغير معه مصير طاقمها، حيث شاهدنا في اليوم 13 من شهر أكتوبر 1769م سفينة تقترب من سفينتنا، عرفنا على الفور أنها ملك لقراصنة الجزائر، كان الوضع لا يبشر بالخير، فلا شك أن الإيالة الجزائرية تريد نقض المعاهدة مع

الدانمارك،¹ جرت الأحداث بشكل سريع وكالعادة قام القراصنة الجزائريون باتباع أسلوب التهريب فقصفوا سفينتنا بقذيفة مدفع أصابت مؤخرتها، ثم انقضوا على طاقم السفينة كالأسود الضارية، وتحت تأثير عنصر المفاجأة لم يُبدِ أفراد هذا الطاقم أية مقاومة تذكر، ثم بعد ذلك قام هؤلاء القراصنة بإنزال العلم الدانماركي وأخذوا الرجال على متن قارب من نوع الشباك²، وهكذا أصبحت السفينة الدانماركية غنيمة جيدة في أيدي القرصان الجزائريين الذين هاجمونا وهم شاهرون السيوف وكانوا ويصدرون صرخات عالية، وكانوا يستولون على كل شيء تقع عليه أعينهم على متن السفينة.

بعد ذلك تبدأ فصول الأسر والمصير المجهول، حيث انطلقنا جميعا في اتجاه مدينة الجزائر أين وجدنا أعدادا هائلة غير معتادة من السكان في استقبال الأسرى³. أسر السفن حوادث مؤسفة، محاولات المقاومة والهروب، شحن البضائع من السفن ومراقبة الركاب والسلع، وجد طاقم السفينة أنفسهم أمام وضعية لا يُحسدون عليها، حيث وقعوا تحت صدمة الخوف والجوع العطش والبرد الشديد، وفي يوم الخميس 28 أكتوبر اقتربنا من المضيق⁴ وهو مكان سريع التقلب وحافل بالأخطار الكبيرة.

¹ عقدت معاهدة السلم يوم 10 أوت 1746 ووجدت في سنة 1748 و1749، ونصت هذه المعاهدات على أن ترسل حكومة كوبنهاغن إلى الجزائر معدات عسكرية (المدافع والقنابل والمراسي والحيال والبارود ومدافع الهاون... إلخ)، علاوة على الهدايا التي بعث بها جلاله الملك سنة 1751 أعرب للداي رغبته في تحسين العلاقات مع حكومته.
² كانت هذه الوحدة تتألف من 34 مدفعا وطاقما يتكون من 280 رجلا.

³ لقد اعتاد سكان مدينة الجزائر منذ انضمامها إلى الدولة العثمانية في مطلع القرن السادس عشر الميلادي على الخروج في أعداد كبيرة للفرجة والتمتع بمشاهدة السفن وهي عائدة من القرصنة بالغنائم، كما اعتادوا على التفرج على الأساطيل الدول الأوروبية التي كانت تهاجم مدينة الجزائر والتي كانت تمنى بالهزيمة، وحتى النسوة كن تشاهدن الأحداث من شرفات المنازل أو الأسطح، وقد أشارت العديد من المصادر الأوروبية المعاصرة لهذه الفترة إلى هذا المشهد الذي كان يزيد القراصنة تشجيعا وحماسة.

⁴ يقصد به مضيق جبل طارق (المترجم) سجل الدين حضوره القوي على متن السفن حيث كان القراصنة يحملون معهم القرآن الكريم الذي يتلونه لاعتقادهم أن في البحر أشياء تذهب مع القراءة.

وقد تحدث بعض الكتاب المعاصرين أو الأسرى بالتفصيل عن هذه الأوقات أثناء عبور هذا المضيق. فالأب دان le Père Dan يتحدث في كتابه (تاريخ باربرية) خلال القرن السابع عشر عن الصلوات التي كان يقوم بها القراصنة عند عبورهم المضيق، حيث كتب يقول "كل مرة يبلغ فيها القراصنة (يقصد الجزائريين) أعمدة هرقل (جبل طارق) إلا

د. لخضر بوطبة نيلز نيلسون موس: أسير نرويجي في مدينة الجزائر (1769 - 1772)

وفي الجزائر يتعرف الكاتب لأول مرة على العادات والتقاليد الإسلامية ويري لنا تفاصيل هشة وسطحية حول نشاط القرصنة الجزائرية. ومع ذلك نسجل أسفنا لأن القصة قصيرة. (المور الأتراك يعني الجزائريين) نشاهدهم يدخنون تحت بنادقهم مساء كل يوم خميس، وعلاوة على ذلك كانوا يعتنون جيدا بأذقانهم وفي النهاية يؤدون الصلاة ثلاث مرات في اليوم»¹.

اجتازنا المضيق² تحت جنح الليل خوفا من السفن الإسبانية، وكان الجميع على أتم الاستعداد لمعركة متوقعة. وفي هذه الأثناء التزم الأتراك الهدوء على غير عاداتهم، ذلك أنهم كانوا معتادين على إثارة الصخب والضجيج في أحاديثهم، هل كان سبب صمتهم أنهم كانوا يخشون لفت انتباه السفن الإسبانية؟.

لقد أبحرنا وكان يحدونا الأمل في ملاقات سفينة مسيحية تقوم بتحريرنا لكن لا شيء من ذلك في الأفق.

ها قد وصلنا إلى الأرض الإفريقية؛ هاهم الأسرى في "وكر اللصوص".

وكانوا يؤدون صلواتهم، ويقولون أن ضريح مرابط كبير مقدس يوجد بهذا المكان. وعندما يصبح الوضع أكثر خطورة فإن دعوة هذا المرابط تصبح فعالة جدا ونافعة ولها دلالتها". وسجل دارندا d'Aranda - الذي كان في طريقه إلى الأسر في مدينة الجزائر - شهادته على الطقوس الخارقة التي كان يمارسها القراصنة عند وصولهم إلى مضيق جبل طارق حيث يقول: "وصلنا إلى مضيق جبل طارق المكان الذي اعتاد فيه الأتراك أن يكثروا من الصلوات والدعاء عند عبورهم هذا المضيق، وعلاوة على الصلاة كانوا يقومون بصب الزيت في البحر في اتجاه الجبل حتى يحافظ البحر على هدوءه، وكانوا يشعلون الشموع عند عبورهم المضيق أثناء الليل لكي يهدأ البحر كذلك". من كتابه قصة أسر وتحرير السيد إمانويل داراندا (1656)، وسجل الأسير غيريت متزون Guerit Metzson في كتابه "يوميات مغامراتنا" الذي صدر في الجزائر عن دار AIEO " سنة 1954 سجل الملاحظات التالية: "عند شروق الشمس كان البحار يقوم بغسل اليدين والرجلين والوجه (يقصد الوضوء - المترجم-) ثم يفتش قطعة من القماش على الأرض ويجلس على ركبتيه ويؤدي الصلاة، وبعد الانتهاء يواجه السماء وكان يتمم بالكلمات ماداً يديه إلى السماء إنه يقوم بهذه الطقوس ثلاث مرات متتابعة عقب كل صلاة"، من بين أخطاء غيري ميتزون قوله ساخرا " أنهم كانوا يرفعون الأيدي بدل الأرجل للتوسل إلى الله".

¹ هي ملاحظة تدفع للفضول يخبرنا بها نيلز موس الذي أضاف قائلا: "عندما كانت تأتي سفينة إلى الميناء وهي تحمل جرسا على متنها يتوجب توقيفها حتى لا تحدث ضجة".

² كان الأسطول تحت قيادة الأميرال دو كاس de Caas.

يقدم لنا الكاتب وصفا موجزا عن الميناء وأصوله، عن الفنار والتحصينات والمكان الشديد المراقبة، عن المدينة العالمية، عن عداوة السكان الأسرى المسيحيين، الداوي، كبار الشخصيات، السكان المحليين الأتراك والمسيحيين، السلوكات اليومية المعتادة. هي ملاحظات يمكن إدراجها ضمن الحوليات أكثر منها أطروحة تعتمد على العقل والمنطق.

وحين يتكلم عن القرصنة الجزائرية¹ لا يهمل الكلام عن القرصنة المضادة في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، حيث كان ميناء مدينة الجزائر يعج بالغنائم والأسرى العبيد.

ونستفيد بقراءة الفقرة التي يتحدث فيها عن البادستان Badistan، سوق العبيد، حيث يقدم لنا وصفا نادرا للمكان؛ عن الناس الذين ترددوا عليه وعن المفاوضات التي كانت تجري به. حيث كان يتردد على هذا المكان أشرف المدينة، الحراس، الضباط، الجنود والشرف، وحتى السكان البسطاء الفضوليين، ويفيد الكاتب القارئ بالطرق المتبعة للحصول على العبد أو الأسير المطلوب، حيث كان يتم عرض العبيد أمام المشتريين، ويطلب منهم القيام بالجري والقفز كالأرانب ثم يتم بيعهم على الفور. وفي النهاية إذا تم الاتفاق يتوجب على العبد المغادرة مع السيد الذي اشتراه، وإلا يُعاد إلى المكان الذي تم أسر فيه.

لا شيء يدعو للارتياح داخل السجن أو الحمام أين يقبع مئات التعساء، والطعام الذي كان يقدم للعبيد يتمثل في الخبز الممزوج بالقمح والشعير مع الماء بدون خمر لأنه (محرم في الشريعة الإسلامية).

¹ تعرضت الجزائر منذ مطلع القرن السادس عشر إلى حملات عسكرية بحرية أوروبية إسبانية على الخصوص، بعد سقوط الأندلس ولجوء المهاجرين الأندلسيين إلى سواحلها هروبا من جحيم الموت على يد محاكم التفتيش الرهيبة، أدت إلى سقوط المدن الجزائرية الساحلية في يد الاحتلال الإسباني المباشر وغير المباشر الواحدة تلو الأخرى (فسقط المرسي الكبير ثم وهران وبجاية وتنس وشرشال ومدينة الجزائر وغيرها)، ثم توالى الهجمات الأوروبية على الجزائر منذ إلحاقها بالدولة العثمانية وطوال الحكم العثماني لها. ولعل المجال لا يتسع لذكرها كلها وسنكتفي بذكر أهمها على سبيل المثال حملة الإمبراطور شارل الخامس سنة 1541، حملة إسبانيا بقيادة أوريلي سنة 1775، وحملة سنة 1783، وقدر أحد الباحثين عدد الغارات الأوروبية على الجزائر خلال هذه الفترة بأكثر من 70 حملة بحرية كان هدفها تكسير وتحطيم القدرات العسكرية للجزائر والقضاء على عش القرصنة كما كانوا يسمونها حينئذ. (المترجم).

والفراش قديم، وبإلٍ ومتعفن، ومرتفع، ويوجد في الجوار حوالي ثلاثون من الأسود والنمور التي كانت تزمجر باستمرار وكانت السلاسل المقيدة بها تحدث ضجيجا مرعبا حينما كانت تتحرك أو تقفز من أمكنتها فكان يسود الهلع والرعب في نفوس الأسرى التعساء فيهرعون مذعورين إلى الأماكن المرتفعة للاحتماء بها. ويجب أن نكون ممتنين هنا للكاتب لأنه الوحيد الذي يقدم لنا هكذا معلومات من داخل سجون الأسرى. وحين لا يكون حضور هذه الحيوانات المفترسة كافيا هناك أنين العبيد المكبلين بالسلاسل الحديدية لارتكابهم جرائم خطيرة حيث كان كل أسيرين مكبلين بقيد واحد طول النهار وحتى أثناء خروجهم إلى العمل خارج السجون.

ويمتتنا الكاتب بمعلومات أخرى يُغرم بها المؤرخون. وفي السجن جرت العادة لدى الحكومة أنه لما كان يحين موعد تناول وجبة الغداء يُرفع علم أبيض على منارات كنائسهم¹ الخمس أو الثمانية المتواجدة في المدينة- ليعلم الجميع أنه وقت تناول وجبة الغداء، ذلك أنه لا وجود للأجراس هنا لأنها "تسبب لهم الخوف"، وفي بعض الأحيان كان يُقدم للأسرى كوجبة للغداء كمية من الخل وحببات الزيتون وقليل من زيت الزيتون. وكان تناول الأسرى المسيحيين البروتستانت اللحم أيام الجمعة يثير ازدياء الأسرى الكاثوليك، الأمر الذي كان يجعل الجو متوترا داخل السجن.

والأمر الذي يسجله لنا الكاتب كما أشار إليه كل الأسرى هو العمل بدون توقف ولا راحة أثناء الليل والنهار في ظروف يملؤها الرعب والحرمان والضرب بالعصي، وكان عزاء هؤلاء الأسرى الوحيد هو أملهم في رؤية سفينة أوروبية تأتي لإطلاق سراحهم، لكن طال الأمد بهم ليسيطر اليأس على عالم السجن.

ويزودنا الكاتب الذي كان حاضرا في هذه الأماكن (في مدينة الجزائر) بمعلومات قيمة حول الهجوم الفاشل للدانماركيين² ضد مدينة الجزائر. في حين لا تفيدنا المصادر الدانماركية ولا المحلية سوى بتفاصيل موجزة وشحيحة عن هذا النزاع القصير.

¹ يقصد مساجدهم. (المترجم)

² استمرت حالة الحرب بين البلدين عامين أدركت خلالها حكومة الدانمارك أن ما كانت تلاقه سفنها من الخسائر التي تلحقها على يد الرياس الجزائريين أضعاف ما طلبه منها الداوي، فوجهت في عام 1772 الأميرال هوغلاند للتفاوض مع الداوي من أجل السلم، فطلب الداوي مليونين ونصف مليون دورو، وأربع مدافع من البرونز وأربعمئة قنبلة، وأربعين مدفعا من الحديد، وخمسائة قنطار من البارود، وخمسين شرعا كبيرا وما يلزمها من الحبال

د. لخضر بوطبة نيلز نيلسون موس: أسير نرويجي في مدينة الجزائر (1769 - 1772)

اندلعت هذه الحرب الخاطفة بين البلدين يوم 2 جويلية عند قدوم إحدى عشرة سفينة دانماركية¹ إلى ميناء الجزائر، وكان الجزائريون قد علموا بقدوم السفن الدانماركية فكانوا على أهبة الاستعداد للمواجهة.

وقد تمكن الكاتب من تصوير التعبئة العامة للسكان من يهود ومور وأتراك ومسيحيين كلهم كانوا على أهبة الاستعداد وتم تشغيل الجميع لتعزيز التحصينات الدفاعية.

فعلى سبيل المثال قاموا بوضع حاجز من الرمال والألواح الخشبية، حيث نصبوا بهذا الحاجز 10 مدافع ومنجنيقين، وأعدوا بارجة (قارب غير مقمق ومسطح القاعدة يستعمل في نقل الأشياء) لاستعمالها في نقل أكياس من الصوف للاحتماء بها. وقاموا كذلك بوضع أكياس من الصوف في القارب المذكور بغرض حماية المدافعين، ووضعوها على الجدران في مواجهة قذائف العدو. كما

والخشب اللازم لصناعة البواخر، ودفع ما تخلف في ذمة الدانمارك خلال سنوات الحرب هذه، وفي مقابل هذا لا تعيد الجزائر شيئاً للدانمارك.

لمزيد من التفاصيل حول هذا الهجوم أنظر، أحمد الشريف الزهار: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشرف الجزائر، جمع وتحقيق وتعليق توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 25. وعبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، ص ص 239-240. وقد خلد أحد الشعراء أحداث المعركة التي جرت بين الجزائريين والدانماركيين في قصيدة جاء فيها:

كيف شاف السلطان ذا العدو نادي لأهل الحرب كلهم

قال لهم: هبوا وجدوا في الأبراج إلي يخصكم

وأملهم برجال يؤكدوا من كل صنایع من أهلهم

والمدافع نيران يوقدوا يضيعوا إلي جا اقبالهم

يرموا على كل شايقة من برج وطبانة

والرجال على الحرب واقفة كي السبوع غضبانة

ولات البهجة كما الجمرترمي الموت بنار شاعلة

تحرق من لبعاد من كفر بمدافع السبوع مقابلة

وعدوها- لو جارت- ينكسر وجيوشو يضحوا فاشلة

عسكرها معلوم عندهم يزدم بسيوف أخشانة

جاوا بني الرم يحسببلد الجير بقات سايبة

أنظر: M. Belhamissi: *Alger aux mille canons*, Alger, 1992, p132.

¹ كان الأسطول بقيادة مساعد الأميرال دو كاس.

د. لخضر بوطبة نيلز نيلسون موس: أسير نرويجي في مدينة الجزائر (1769 - 1772)

قاموا بتعزيز دفاعات الميناء بعد سحب السفينة التي كانت تحمي الأسوار إلى مكان آمن حتى لا تصلها مدافع العدو.

ومن الحيل التي كان يستعملها السكان هنا في مدينة الجزائر في الدفاع عن مدينتهم التي ذكرها هذا الأسير، أنهم كانوا يجهزون قطع من الألواح الخشبية الكبيرة الصلبة. ويجعلون عددا من الأحواض المليئة بالماء، ثم يقومون بإفراغها لكي تطفو سفن الأسطول بالكامل. وبعد ذلك أقاموا جدارا من الألواح الكبيرة وأكياس الصوف من أجل حماية المدافعين. ولإطلاق شعلات اللهب استقدموا أربعة مدافع وأربع منجنيقات. وباقي التفاصيل في غاية الأهمية سيأتي ذكرها لاحقا.¹ وفي يوم 6 جويلية بعد الظهر شرعت السفن الدانماركية في قصف مدينة الجزائر لكن بدون جدوى. مما يعني فشل هذه الحملة، وهو ما عزز اعتقاد الجزائريين أن مدينتهم محروسة أو محمية، وكانوا يسخرون من الدانماركيين (هذه الدانمارك)². لقد كان لهذا الإخفاق صدى كبير مما عجل بطاقم الأسطول باتخاذ القرار بالعودة، فانسحب الأسطول إلى ميناء ماهون.³

وبالرغم من ذلك كان على أسرانا الانتظار. وبعد وقت قصير جاءت وحدات بحرية من الدول الغربية رست في ميناء الجزائر تحمل عروض السلام من كوبنهاغن مصحوبة بالهدايا. كان تفكير الأسرى هنا يتأرجح بين التحرير بعد طول انتظار، وتخوفهم من الانتقام، كانت الإشاعات التي انتشرت قد ألهبت أحاسيسهم. وتمضي الأيام والأسابيع كذلك. لتبدأ في شهر فيفري 1772

¹ لما شرع الدانماركيون في إطلاق القذائف من بعيد صرح الداى قائلا في سخرية أنه يبدو أن الدانماركيين جاؤوا لإعلان الحرب على الأسماك.

² هذه من إبداع أسيرنا والتي يمكن أن تصبح موضوع رسم لوحة فنية تخلد هذه المحاولة. هي ملاحظة تدفع للفضول يخبرنا بها نيلز موس الذي أضاف قائلا: "عندما كانت تأتي سفينة وعلى متنها جرس يتوجب توقيفها حتى لا تحدث ضجة".

³ الأسير نيلز موس يعتبر من الكتاب القلائل الذين يتحدثون عن خسائر الدانمارك بالتفصيل حين تحدث عن تدمير أسطول الأدميرال، وعن 30 جندي قتل وضابط.

مفاوضات جديدة كُلت بإبرام معاهدة السلم وإطلاق سراح الأسرى بعد تقديم مبالغ مالية معتبرة.¹

وأشار الكاتب في ملحق جعله تحت عنوان "للقرء الأوفياء" أنه لم يذكر كل التفاصيل التي عاشها وشاهدها في الأسر، والتي رواها له أسرى مسيحيون آخرون، ويعتقد الكاتب أنه من المفيد تقديم رمز عاصمة الدايات، في حدود المعلومات المهمة: المدينة وموقعها الجغرافي، القلاع² ودفاعاتها، السور المحيط بها، والخندق الطويل الذي يحيط بالسور، وسجل لنا وصفا للأبواب الأربعة التي تربط المدينة مع العالم الخارجي، ليعرج سريعا إلى موضوع لطالما كان مصدر تأمر الأوروبيين؛ إنها الخزينة الشهيرة (من الأماكن الأغنى في العالم)، لكنه يتوقف وهو محق في ذلك عند غنى المدينة بالمياه كمًّا ونوعيةً. حيث ذكر أنه تم جلب الماء إلى مدينة الجزائر عبر قنوات أرضية مما كان يسمح باحتفاظ المياه بعدوتها وبرودتها حتى في أكثر الأيام سخونة.³

يقول يجب علي أن أتوقف هنا قليلا في هذا الموضوع الذي قلما يعتني به الكتاب، فالمدينة غنية بالمياه وقلما نجد لها نظير حيث تنتشر الحنفيات في الشوارع وفي الميناء وفي أماكن أخرى وهي مزينة بالزخارف.

كما تناول بالعرض عدة عناصر أخرى: فذكر أن عدد المساجد هو ثمانية⁴، لكن مصطلحاته لم تكن دقيقة فهو يطلق على المنارات اسم الأبراج.

وقد اجتذبت الحياة الاجتماعية الكاتب، حيث يصف لنا أحيانا باستحسان بعض العادات، فتحدث عن العادات الجنائزية لدى المسلمين، فسجل الأحداث والأفعال لكنه -سقط رغما عنه- في المغالطات حين يقول صراحة " أن كثيرا من المور (الأهالي) يعتقدون أنه على المتوفى أن يتناول

¹ أكد الداوي أنه لا ينتظر كهدايا سوى القنابل الذهبية، ويخبرنا المؤرخ الجزائري الزهار أن حكومة الدانمارك دفعت مبلغا قدره مليونان ونصف مليون يورو، وضريبة سنوية، علاوة على هدايا لأعضاء الحكومة ومبالغ لافتداء الأسرى قدرها فونتور دو بارادي ب3000 سكة.

² يقول في موضع آخر: "المدينة محمية بالقلاع من جميع الجهات لاسيما من جهة البحر"، أنظر:

M. Belhamissi: **Alger aux mille canons**, Alger, 1992.

³ أنظر: M. Belhamissi: **Alger par ses Eaux**, alger, 2004.

⁴ يوجد في الواقع حوالي مئة.

د. لخضر بوطبة نيلز نيلسون موس: أسير نرويجي في مدينة الجزائر (1769 - 1772)

الطعام والشراب بعد الممأة، فكانوا (يقصد سكان مدينة الجزائر) -كما شاهد بعينه- يحملون التين المجفف والخبز. وهو جهل أن تلك الصدقات هي موجهة للمحتاجين الذين اعتادوا على المجيء كل يوم جمعة إلى المقابر لإشباع بطونهم وسد جوعهم، وفي سذاجة وجهل يعتقد أن هؤلاء يؤمنون أن الموتى لديهم الخيول والمزارع وكل ما هو عجيب.

وفيما يتعلق بالثقافة الإسلامية فإن الكاتب لا يمتلك سوى بعض المعلومات السطحية عن المعتقد، ولا يمكننا أن نطالبه بالدقة في المعلومات باعتباره أسيرا مكبلا بالقيود في النهار ومحتجزا أثناء الليل، فلا يمكنه أن يشاهد أو يسمع ويفهم الكثير من الأمور، حيث أورد عددا من النصوص التي تدعو إلى الحيرة، فالدين عنده لا يتعدى الإطعام والذهاب إلى المسجد ونداء منتصف النهار والليل وبائعات الهوى بالراتب الشهري.

وعلى أية حال لا يمكننا أن نطالب أسيرنا بأن يقدم لنا معلومات دقيقة في هذا العرض. حيث يعود ليصف لنا سور المدينة وقلاعها، ويحصي مدافعها وقذائفها وقنابلها الكثيرة العدد. وفي الجزيرة عدد كبير من المدافع يصل طول الواحد منها إلى 21 قدما دانماركيا وفوهته واسعة لدرجة أن الإنسان يمكنه إدخال رأسه فيها. وهذا المدفع الآن تم تحطيمه ولكن قيل لي أن فرنسا تعيسا وُضع فيما مضى عند فوهة هذا المدفع وقذف به ناحية الأسطول الفرنسي الذي كان يتواجد في الميناء.¹

¹ هل يتعلق الأمر بالمدفع الشهير المعروف بـ "بابا مرزوق" الذي صنع سنة 1542 على يد شخص من البندقية كان يعمل لحساب مسؤولين في الإيالة؟ القطعة من البرونز بطول ستة أمتار ونصف، وبلغ مدى طلقاته 4500 متر، تم تنصيب هذا المدفع على المول سنة 1560م. هذا المدفع الكبير يمثل ذكرى سيئة لدى الفرنسيين، حيث قام الداي "حسن ميزومورطو" سنة 1683م عقب حملة بحرية قامت بها فرنسا ضد مدينة الجزائر بوضع القنصل لوفاشي le Vacher عند فوهة هذا المدفع وتم إطلاق القذيفة على الأسطول الفرنسي، وفي سنة 1688 نظمت فرنسا حملة بحرية أخرى ضد مدينة الجزائر فلقى القنصل بيولي Piolle المصير ذاته. وفي سنة 1830 أطلق عليه اسم "القنصلية" ونقل إلى برست Brest حيث لا يزال هناك إلى وقتنا الحاضر. لمزيد من التفاصيل حول هذا المدفع أنظر:

Moulay Belhamissi: *Alger, La ville aux mille canons*, Alger, 1990, pp56-57.

وكان أسيرنا في هذا الوصف السريع ينتقل من موضوع إلى آخر حيث ألهمت كل الموضوعات قلمه، فكتب عن الرجال وعن المرابطين، عن الطبيعة والنباتات والأزهار والحيوانات الإفريقية والطيور النادرة والسكان ونمط حياتهم، وهو تحليق سريع كان يستهوي القراء في دول أوروبا الشمالية حينئذ.

ويسجل لنا كتاب نيلز موس الجزء المهم من مأساته دون أن يقع في فكرة الكراهية للجزائر أو تركيا. تلك الفكرة التي كانت ثمينة لدى القراء المحبين. ذلك أن بعض الأسرى والقساوسة كانوا رهينة لأفكارهم في كتابة مذكراتهم.

إن شح الشهادات الحية في ما يتعلق بتاريخ الجزائر خلال العهد العثماني الممتد من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر يجعل هذه المعلومات التي تركها لنا أولئك الذين عايشوا المغامرات المأساوية في غاية الأهمية تعد بمثابة إغاثة بالنسبة للمؤرخ.

لقد قال الكاتب في الأوديسة كل شيء رغم بعض الادعاءات الكاذبة لكنها لم تكن بغرض الإساءة، وبهذا الكتاب يكون الكاتب قد أثرى المكتبة البربرية التي هي في أمس الحاجة لمثل هذه الأعمال لتخليص هذه المكتبة من الكتابات المسيئة والمضرة والحاقدة.

مولاي بلحميسي، أستاذ التاريخ، جامعة الجزائر

الاتحاد الدانماركي النرويجي والجزائر 1769-1772:

في صيف عام 1770م تحديدا يومي 6 و8 جويلية قام الأسطول الدانو - نرويجي بقنبلية مدينة الجزائر، لكن المدينة ترفض الاستسلام. لقد جاء المهاجمون من بعيد، من بلاد الشمال الأوروبي، كانوا يملكون عددا كبيرا من السفن الحربية تحمل على متنها ثلاثة آلاف (3000) جندي وبحارة، بعد ذلك عاد الأسطول خاوي الوفاض. وبعد هذا القصف بقليل أدرك أولئك الذين أرسلوا هذه القوة البحرية أن فشل الهجوم يعود إلى عدة أسباب. أحد تلك الأسباب كان تافها للغاية: إنها بكل بساطة سوء اختيار الوقت الملائم للحملة، حيث هبت الرياح قادمة من البحر منعت المهاجمين من تنصيب مدافعهم بدقة حتى يتمكنوا من قصف المدينة في المرحلة الأخيرة من هذه المعركة. كانت هذه إحدى أسباب الهزيمة، وفي نهاية المطاف عاد السلم بين البلدين وعاد النشاط البحري كما لو أنه لم يحدث أي شيء.

د. لخضر بوطبة نيلز نيلسون موس: أسير نرويجي في مدينة الجزائر (1769 - 1772)

لماذا يبحر أسطول من الشمال الأوروبي إلى البحر المتوسط من أجل مهاجمة حكومة في إفريقيا الشمالية؟

هذا ملخص النزاع الذي نشب بين المملكة المزدوجة الدانو-نرويجية¹ وحكومة الباربرسك في مدينة الجزائر التي كانت تمثل القسم الغربي لممتلكات الإمبراطورية العثمانية. دامت هذه الحرب ثلاث سنوات من سنة 1769 إلى 1772. هي قصة قصيرة للعلاقات بين الاتحاد الدانو-نرويجي والجزائر خلال بضعة عشرات من السنين من منتصف القرن الثامن عشر. حيث كان الاتحاد الدانو-نرويجي يعتبر الجزائر تارة بلد قرصنة منظمة، وتارة أخرى ذلك الخصم السلمي. فهي صداقة هشّة لكنها صداقة لا بد منها، ولكنها أكثر من ذلك فهي قصة البحار نيلز موس.

كان هذا البحار متواجدا في مدينة الجزائر كأسير حينما جاءت العمارة الحربية الدانو-نرويجية وقامت بقصف مدينة الجزائر من البحر فيما بعد، وبعد إبرام معاهدة السلام وتحريره من الأسر قام بتدوين مغامرته في كتاب أطلق عليه عنوان "تقرير تاريخي عن مصير طاقم السفينة جونفري كريستينا ترانهايم" وهو الوحيد من النرويجيين الذين قدموا لنا وصفا للمجتمع الجزائري خلال الفترة العثمانية.²

ومثلما ذكرنا من قبل كان الاتحاد الدانو - نرويجي يعتبر الجزائر بمثابة عيش للقراصنة بداية من أواخر القرن السادس عشر الميلادي³ - وهي الفترة التي بدأ هذا الاتحاد نشاطه التجاري في البحر المتوسط - حتى سنة 1746، حيث تم توقيع أول معاهدة للسلام مع حكومة الجزائر حملت

¹ كانت النرويج متحدة مع الدانمارك خلال الفترة الممتدة من سنة 1536 إلى غاية 1814.

² أنظر نص المذكرات لنيلز موس لاحقا.

³ أنظر وثائق أخرى في أرشيف الحكومة في أوسلو، المستشارية الدانماركية:

Cas envoyés par Apent lettre / missive. Messages et dossiers rejetés: Forfait 1 / 1582-1648 (ajouter 01.10.1634). Cas Licenciés Chronologiquement disposés: Pake 3, 1671- 1696, (ajouter le 7/3/1682 et le 17/3/1693).

د. لخضر بوطبة نيلز نيلسون موس: أسير نرويجي في مدينة الجزائر (1769 - 1772)

عنوان " معاهدة سلم بين ملك الدانمارك والنرويج وداي جمهورية الجزائر؛ تم توقيعها يوم 22 رجب 1159 هـ الموافق ل10 أوت 1746م".¹

وقد اكتست معاهدة السلم التي أبرمت سنة 1746 أهمية بالغة بالنسبة للبلدين،² فالسفن التجارية الدانو - نرويجية التي كانت غالبيتها تأتي محملة بالسمك المملح والأخشاب إلى دول أوروبا الجنوبية، وكانت تعود محملة بالملح إلى الاتحاد الدانو - النرويجي، كان بإمكانها التقاطع مع سفن القرصنة الجزائرية - شريطة أن يتلقى داي الجزائر الضريبة³ بصفة منتظمة من طرف حكومة كوبنهاغن. لقد وضعت هذه المعاهدة الحد لاقتياد السفن الدانو- نرويجية كغنيمة في اتجاه الجزائر، كما أنهت معاناة آلاف البحارة الدانو - نرويجيين الذين كانوا يعانون الأسر منذ 150 سنة.

لكن الأيام الجميلة لا تدوم كما هو معروف. على أن الملاحة البحرية الدانو - نرويجية عرفت أوج نشاطها في البحر المتوسط- فالفترة هذه تمثل العصر الذهبي للملاحة في الاتحاد في النصف الأخير من القرن الثامن عشر-، ومع ذلك بقيت الهدايا والضريبة التي كانت تدفع للداي على حالها ولم تتغير، ولذلك أعطت هذه الظروف للداي محمد عثمان باشا المبرر لكي يظهر أكثر إصرارا وعدوانية اتجاه القنصل الدانو-نرويجي في أواخر سنوات 1760.

وحسب القنصل أندرياس أيروبي هذا⁴ فإن الداى ما هو إلا شريف باربرسكي جشع وشرس. إننا نكون منصفين لهذا الداى من خلال اعتباره ممثلاً، وليس بالضرورة غير إنساني، لنظام قرصنة شمال إفريقيا في أنقى صوره.

¹ أنظر الموقع الإلكتروني: <http://web.Sdu.dk.mrh/treaty.htm>.

² يقصد الجزائر والاتحاد الدانو-نرويجي (المترجم).

³ بلغت قيمة الهدايا التي قدمت للداي بمناسبة توقيع المعاهدة 58000 ريكسدال أوريثدال - rixdale (عملة نقدية هولندية ثم شاع انتشارها في شمال أوروبا)، والمصاريف ارتفعت إلى 28000 ريكساد، وكانت الإتاوة السنوية تدفع على شكل مدافع وبارود والعتاد اللازم لصناعة السفن.

⁴ قنصل الاتحاد الدانو- نرويجي في الجزائر من سنة 1763 إلى سنة 1769.

د. لخضر بوطبة نيلز نيلسون موس: أسير نرويجي في مدينة الجزائر (1769 - 1772)

فالمعاهدات لا تراعي الظروف الملائمة، وكان رد الجزائريين القيام بالمزيد من الاستيلاء على الغنائم لرفع الضرائب الجمركية. وهذه الأموال في الواقع كانت تدفع من أجل توفير الحماية لسفن القوى الأوروبية ضد القراصنة الجزائريين.

ومهما يكن من أمر فإن إعلان الداى الحرب على الاتحاد الدانو-نرويجي سنة 1769 قضى على علاقات السلم الطويلة الأمد. حيث غادر القنصل (الدانو-نرويجي) أندرياس أيروبي الجزائر واستقر في ميناء طولون Toulon¹ وكان من هناك يراقب السفن الدانو-نرويجية ضد خطر الوقوع كغنيمة في يد القراصنة الجزائريين. (يشكل كون المرء قنصلاً أوروبياً في الجزائر في أوقات الحرب خطراً حقيقياً على حياته، حيث حدث مرتين خلال القرن الثامن عشر أين قامت السلطة في الجزائر بوضع الأغلال لقنصل فرنسي وآخر بندق، ثم اقتيدا للعمل في مقالع الحجارة ودفع العربات المحملة بالحجارة لأن حكوماتهما لم تنصاعاً لأوامر الداى).

ولكننا لا بد لنا هنا من أن نضيف من أجل إنصاف الجزائر، أنه خلال فترة السلم التي امتدت من سنة 1746 إلى سنة 1769 كانت الجزائر تحترم بنود المعاهدة، رغم أنها كانت تميل بالتأكيد إلى أسر المزيد من السفن والعبيد. وقد حدث أن قام القراصنة الجزائريون بإطلاق سراح سفينة دانو-نرويجية سنة 1761 قبضوا عليها بينما كانت تبحر بين البرتغال وسيفيتا فاتشيا² وكانت تحمل على متنها 150 من الجزويت³، القوة الضاربة للبابوية التي طالما مارست العنف على الأراضي الإسلامية، وقد كان الاعتقاد السائد أنهم سيستولون عليها ويقتادونها إلى الأسر، بعد ذلك واصلت رحلتها نحو إيطاليا. فالقراصنة الجزائريون في الواقع كانوا يحترمون المبدأ البحري القائل "سفينة

¹ هو ميناء بحري فرنسي يقع على ساحل البحر المتوسط في الجهة الشرقية، يعرف بأن الحملة الفرنسية لاحتلال الجزائر انطلقت منه سنة 1830. (المترجم)

² هي مدينة ساحلية إيطالية تقع شمال روما في الجهة الغربية وتبعد عنها بحوالي 80 كلم. (المترجم)

³ الجزويت هم اليسوعيون وهم رجال ينتمون لإحدى الطوائف الرهبانية التابعة للكنيسة الكاثوليكية، وقد أسس هذه الرهبانية، المعروفة باسم "جماعة يسوع Society of Jesus" القديس إغناطيوس لويولا Ignatius Loyola (1591-1656) منذ أكثر من 450 عاماً. وعادةً ما يُعرف الرهبان المنتمون إلى هذه الجماعة باسم "اليسوعيين" وهم منتشرون في عدة بلدان من العالم. لمزيد من التفاصيل راجع: <https://ar.wikipedia.org/wiki/>

حرة -حمولة حرة"، حتى ولو كان في ذلك مخاطرة حين تكون الحمولة تابعة لدولة عدوة لكن السفينة تابعة لدولة محايدة.

أسباب النزاع بين الجزائر ومملكة الإتحاد الدانو-نرويجية¹:

مثلا سنرى بدأ كل شيء عندما طلب الداى بابا محمد بن عثمان بإصرار بعد وقت قصير على تعيينه على رأس الإيالة² هدايا إضافية من حكومة الاتحاد الدانو-نرويجي، الأمر الذي اعتبرته الحكومة في كوبنهاغن خرقا لبنود المعاهدة المبرمة سنة 1746. وحسب المؤرخ الدانماركي دان أندرسون Dan Andersen كان تغيير الدايات في الإيالة خلال القرن الثامن عشر يحدث حالة من عدم الاستقرار بالنسبة للقناصل الأوروبيين، فكانوا ملزمين بالتعرف على الداى الجديد، وينبغي التعرف على مزاجه وشخصيته، علاوة على تقديم الهدايا له ولرجال حكمه. وكان الداى بابا محمد لا يتورع عن استغلال أية فرصة للمطالبة بمزيد من الهدايا من القناصل الأوروبيين.

أصدرت سلطات عاصمة المملكة الدانو-نرويجية الأمر إلى قنصلها في الجزائر السيد أيروبوي Eroboe بأن يبلغ الداى أن هدايا إضافية قيمة ستصله في أقرب وقت، متمثلة في مقتنيات ثمينة

¹ أورد دوغرامون الرواية التالية: أعلن الداى محمد عثمان الحرب على الدانمارك بسبب تأخرها في حمل الهدايا والإتاوة التي اعتادت أن تدفعها لحكومة الجزائر، وكذا السماح لسفن الهامبورغ باستعمال العلم الدانماركي، وبعد عام أي في سنة 1770 رسا أسطول الدانمارك بقيادة دو كاس في ميناء مدينة الجزائر وكان يتألف من أربع سفن الصف ذات السبعين مدفعا، وفرقاطتين ذات الأربعين مدفعا، وغليوطتين مقبلتين، وأربع سفن للنقل، وكان يحمل العلم الأبيض. فبعث الداى قائد الميناء مع السيد فاليار "Vallière" ليساعده في الترجمة ليخبر الأدميرال الدانماركي أنه إذا كان جاء لإعلان الحرب فإن الجزائريين مستعدون لاستقباله، وإن جاء يريد السلم فإنه ارتكب خطأ عندما اصطحب معه هذه البواخر الحربية، فرد عليه الأدميرال أنه جاء للمطالبة بالغنائم التي تم الاستيلاء عليها تحت الراية الدانماركية، وأنه سيحاصر المدينة إن لم يحصل على هذه الغنائم. فشرعت الحصون الجزائرية في إطلاق النيران على السفن الدانماركية التي أمطرت هي الأخرى المدينة بالقنابل ودامت الحرب من يوم 5 جويلية إلى العاشر من نفس الشهر، لكن القذائف الدانماركية لم تكن تصل إلى أهدافها مما جعل القوات الدانماركية محل سخرية الأتراك والجزائريين حيث أعلن الداى ساخرا أن الدانماركيين جاؤوا للقتال مع الأسماك. أنظر:

Henri Delma de Grammont: *Histoire d'Alger sous la domination Turque*, éd, Bouchène, Paris, 2002, pp 255-256.

² تولى الداى محمد عثمان الحكم يوم الأحد 21 شعبان 1179هـ/الموافق ل 1 فيفري 1766 بناء على ما أورده أحمد الشريف الزهار في الصفحة 23، بعد وفاة الداى علي باشا المدعو بوصباغ. (المترجم)

بمناسبة تعيينه حاكما على الجزائر، وقد تبين بعد ذلك أن هذا الداى لم يكن راضيا عن حكومة الاتحاد، وبناء عليه فقد أبلغ القنصل السابق الذكر سلطات حكومته في شهر نوفمبر 1768 أن الداى يريد هدايا إضافية أخرى تبلغ قيمتها 3600 ريكسدال Rixdales ، وأصرَّ على أنه يجب أن يصل المبلغ المحدد إلى مرسيليا قبل انقضاء مدة ثلاثة أشهر، وعلاوة على ذلك طلب الداى تقديم هدايا لحكومته مرة كل سنة. ذلك لأن العادة جرت أنه يتوجب على كل قنصل جديد أن يقدم الهدايا للداى، ففي حالة مكوث القنصل في منصبه مدة سنتين فإن الداى سيخسر الهدايا التي من المفروض أنه يقدمها كل سنة. ولهذا يتوجب على القنصل أن يدفع الهدايا حتى وإن لم يتغير كل سنة.

وبعد ذلك كتب القنصل أيروبوي إلى وزير الشؤون الخارجية الكونت جوهان هارتفيغ إرنست برنستورف "Johan Hartvig Ernst Bernstorff" (1712-1772) يُخبره أن حكومة الجزائر ترهق حكومة الاتحاد بهذه الهدايا الإضافية التي تتعارض مع معاهدة السلم بين البلدين. وأضاف له أن القضية تتعلق بشعب لا يعبر للإنسانية أي اعتبار، وأجاب الداى القنصل عندما اشتكى له قائلاً بكل بساطة "أن البحرية ترهق الداى والداى يرهق أيروبوي".

ومع أننا أمرنا بإرسال الهدايا الإضافية من مرسيليا، ولكن لما أوشك القنصل أيروبوي على إبلاغ الداى، كان هذا الأخير قد فقد صبره. فرفض استقبال القنصل أيروبوي الذي تم توقيفه أمام باب القصر ووجهت له ثلاث رسائل: الرسالة الأولى مفادها أن الجزائر أعلنت الحرب على الاتحاد الدانو-نرويجي، والرسالة الثانية جاء فيها أنه على القنصل مغادرة الجزائر في مدة لا تتجاوز الثلاثة أيام، فيما نصت الرسالة الثالثة والأخيرة على أنه في غضون أربعين يوما سيقوم القراصنة الجزائريون بالاستيلاء على السفن التجارية الدانو-نرويجية التي سيصادفونها في عرض مياه البحر. ولم يقدم الحارس إلى القنصل أي شروحات أخرى، وبعد ذلك غادر القنصل أيروبوي الجزائر بعد عدة أيام على متن سفينة إنجليزية كانت راسية في الميناء، وقد شعر بخوف شديد أثناء مغادرته مقر إقامته، عند مروره بالقرب من الثكنة ونزوله إلى الميناء: حيث كان من السهولة إطلاق النار عليه من الأعلى في حالات مماثلة.

ومن المؤكد أن القنصل أيروبوي كان يعرف أسباب إعلان الجزائر الحرب على الاتحاد الدانو-نرويجي، وبعض التهم لم يكن لها أساس من الصحة. في البداية كانت هناك مطالب لا متناهية، ثم كانت هناك تهم جارية على أن الاتحاد الدانو-نرويجي باع جوازات سفر لسفن قدمت من مدينة هومبورغ. وكانت هذه المدينة الهانزية¹ لم تكن بعد قد أمضت معاهدة سلم مع الجزائر. المشكلة التي كانت تقلق التجار الهومبرغيين حينما كانوا ينقلون بضائعهم على متن سفن قادمة من ميناء ألتونا² Altona، المدينة المجاورة التي كانت جزءا من مملكة الاتحاد الدانو-نرويجي. وأخيرا السبب الذي أغضب الداي كثيرا وهو قيام الاتحاد الدانو-نرويجي بعقد تحالف مع روسيا، لأن هذه الأخيرة كانت في حالة حرب مع تركيا منذ سنة 1768.³

من إذن الذي نقض المعاهدة؟ هل أساء الاتحاد الدانماركي النرويجي استعمال بنود المعاهدة؟ أم أن الداي فسر المعاهدة بكل صرامة حتى يتسنى له التفاوض لعقد معاهدة مريحة؟ إنه من الصعب التأكيد على أن الداي تفاعل حقيقة ضد تحالف الاتحاد الدانو-نرويجي مع روسيا التي كانت في حالة حرب مع تركيا بين سنتي 1768-1774. ومن الممكن اعتبار إعلان هذه الحرب بمثابة وسيلة ومهلة لتوجيه انتباه حلفاء روسيا. رغم أن الإعلان الرسمي عن هذا التحالف لم يكن حتى سنة 1769، يعني بعد إعلان الجزائر الحرب، وذلك يعني أن التقارب بين الاتحاد الدانو - نرويجي وروسيا كان سابقا لهذه الفترة الزمنية.

¹ الرابطة الهانزية "هانزه" (بالألمانية: die Hanse) هي رابطة ضمت العديد من المدن التجارية في منطقة بحر الشمال (شمال ألمانيا) والبلطيق، استمرت من القرن الـ12 حتى الـ17 م.

² هي مدينة تابعة لمملكة الهومبورغ (المترجم)

³ اندلعت هذه الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا سنة 1768 واستمرت حتى سنة 1774 انتصرت فيها روسيا التي كانت تقودها الملكة كاترين الثانية المعروفة بطموحها السياسي التوسعي، وكان يحكم الدولة العثمانية السلطان مصطفى الثالث (1757-1774) وانتهت هذه الحرب بتوقيع معاهدة كيتشوك كايبارجي في بلغاريا، حيث كان للروس أطماع توسعية على حساب الأراضي العثمانية، كما كانوا يتطلعون إلى الوصول إلى المياه الدافئة (البحر الأبيض المتوسط)، وكان يتوجب سيطرتهم على البحر الأسود الذي كان بحيرة عثمانية وعلى مضيق البوسفور والدردينيل الأمر الذي لا يمكن للعثمانيين أن يسمحوا به فكانت الحرب تنشب بين الدولتين من حين لآخر. لمزيد من التفاصيل راجع. يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية (مترجم). خليل إينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار (مترجم). سيد محمد السيد: تاريخ الدولة العثمانية (النشأة - الأزدهار).

ردود الفعل في كوبنهاغن:

كيف استقبل خبر إعلان الداي الحرب في كوبنهاغن؟ أولا كان إعلان الداي الحرب على الاتحاد الدانو- نرويجي صدمة كبيرة في كوبنهاغن لأن الحكومة لم تبذل قصارى جهودها لمقاومة فكرة الحرب وإحلال السلم مع الجزائر: حيث قدمت هدايا ثمينة ومحاولات للتفاوض بواسطة السلطان، وهناك عدد قليل من البيروقراطيين الذين أظهروا أدنى تردد في المخاطرة بإرسال قوة بحرية إلى إفريقيا الشمالية. لماذا إذن اختاروا مواجهة القوة بالقوة؟ ومن هو الشخص الذي قرر معاقبة الداي باستخدام المدافع؟ فالملك كريستيان السابع (1749-1808)، كان يبلغ من العمر عشرين سنة، استلم السلطة منذ سنة 1766. وكان يعاني من مرض عقلي، فمن المؤكد أنه لا علاقة له بإصدار هذا القرار.

في الواقع كانت المملكة حينئذ تقع تحت هيمنة الوزراء والموظفين. وكان برنستورف (Bernstorff) الذي شغل منصب وزير الشؤون الخارجية منذ سنة 1751 متحكما في قسم كبير من السلطة، وقد مكنته طول المدة التي قضاها كوزير من اكتساب نوع من الغطرسة، على الأقل وجها لوجه مع حكومة الباربريسك¹ في أول عرض مهم. فمن الراجح أنه لم يتلق المعلومات الكافية عن التقارير المقلقة التي كان القنصل الدانو-نرويجي يبعث بها سنوات 1760م إلى كومرسكولجيات (Kommercekollegiet) حيث كان وزيرا للتجارة خلال هذه الفترة- وليس إلى المستشارية الألمانية، بوزارة الشؤون الخارجية. فالوزير برنستورف لم يُقدّر الموقف حق قدره بكل بساطة، ولم يكن يأخذ بعين الاعتبار إشعارات الخطر التي قد تُكبد البلد من وراء إعلان الحرب من طرف الداي. وعلى الرغم من أن أنباء إعلان الداي الحرب وصلت إلى كوبنهاغن يوم 23 سبتمبر 1769، فإنه لم يقترح إرسال حملة العقاب في اتجاه مدينة الجزائر حتى يوم 6 نوفمبر من العام ذاته. بالإضافة إلى أنه لا شيء يدل على أنه طلب نصيحة من أحسن ضباط البحرية، فمن المحتمل أن يكون قد اكتفى بإجراء مشاورات قصيرة مع وزير البحرية. وبكل بساطة يمكن القول أن برنستورف كانت تنقصه

¹ الباربريسك Barbaresques هي التسمية التي كانت تعرف بها حكومات إفريقيا الشمالية عند الاتحاد الدانو-نرويجي.

د. لخضر بوطبة نيلز نيلسون موس: أسير نرويجي في مدينة الجزائر (1769 - 1772)

المعرفة بالشؤون العسكرية، مما ترتب عنه إتخاذه قرارات مهمة دون أن تكون له معلومات كافية حولها.

في هذه الأثناء كان الداوي يأخذ على محمل الجد تهديداته، فعقب إصداره قرار إعلان الحرب الذي كان خلال شهر سبتمبر قام القراصنة الجزائريون بالاستيلاء على سفن تجارية دانو-نرويجية غرب مضيق جبل طارق.

والإضافة إلى الحرب التقليدية فإنه كانت هناك كما سنرى لاحقا حرب قرصنة منظمة، كان المحيط الأطلنطي والبحر المتوسط مسرحا لها. حيث تم القبض تباعا على ثلاث سفن دانو-نرويجية، واقتيد 41 بحارا دانو-نرويجي إلى مدينة الجزائر كعبيد. هؤلاء الـ 41 أسيرا كانوا يُشكّلون طاقم ثلاث سفن: السفينة برانسيسن (Princessen) (أسرت يوم 4 أكتوبر)¹ وكانت قادمة من ألتونة (Altona)، يعني القسم الجرمانى والجنوبى من المملكة،² والسفينة ريجرنس أونسكي (Rigernes ønske)³، التي (أسرت يوم 9 أكتوبر) وفي الأخير السفينة جومفري كريستينا Jomfrue Christina التي وقعت في قبضة القراصنة الجزائريين يوم 13 أكتوبر كانت قادمة من توردهايم بالنرويج.

¹ أنظر كذلك المذكرة القصيرة التي ظهرت في الجريدة الأسبوعية النرويجية، Trondhiems Adresse-Contoires، الصادرية يوم 29 ديسمبر 1769 جاء فيها: «حسب معلوماتنا انطلق من تروندهايم القبطان هانس ثود غرام السفينة جومفري كريستينا في اتجاه لشبونة وكانت تنقل على متنها حمولة من الخشب والزفت، وقعت في الأسر على يد شباك جزائري يوم 13 أكتوبر، على بعد حوالي 22 ميل بحري عن لشبونة. وتم الاستيلاء عليها وعلى طاقمها المتكون من 9 أشخاص وشاب تاجر، السيد جاكوب هيرمان كولان. ثم تم اقتياد السفينة وحمولتها نحو مدينة الجزائر.»

² الاتحاد الدانو-نرويجي يمتد من ألب Elbe جنوبا إلى الحدود الروسية في الشمال.

³ السفينة ريجرنس أونسكي على أية حال لم تكن في منأى عن إزعاج الأتراك، لأن مالك السفينة لم يتم إخطاره بخرق معاهدة السلام قبل أن تنطلق هذه السفينة من كاغلياري.

أحداث الحرب من 4 إلى 15 جويلية 1770¹

قامت القوات البحرية التي تم إرسالها من كوبنهاغن بغرض إبرام معاهدة السلم بقبيلة مدينة الجزائر - وهي سياسة اعتادت حكومات الدول الغربية على اتباعها ضد العرب ولا تزال مستمرة إلى يومنا هذا- هذه القوة كانت كبيرة في هذا العصر. وكانت تتألف من أربع سفن من أكبر سفن الأسطول: سفن الخط برانس فريدريك (سفينة أميرالية) (Prins Friedrich)، وسفينة الأميرة صوفيا ماجدالينا (Prindsesse Sufia Magedalena) ، والسفينة مارس وسلاسفيغ (Slesvig et Mars) كانت تحمل كل منها ما بين 50 إلى 70 مدفعا. بالإضافة إلى الفرقاطين كريستيانزو وهافرون (Christiansø et Havfruen)، اللتين كانتا مجهزتين بـ32 مدفعا، والغليوطنين المقبلتين ستابرافت وبك أن (Staabravet et Pak An)، والسفينة المستشفى دوفير سوستر (De Fire Søstre)، وعمارة النقل (Laurvig) وأخيرا سفينة من نوع البريك تدعى بوستيلجونن (Postiljonen) التي رافقت القوات نحو الجنوب. ولتجهيز هذه القوات تم تجنيد البحارة من كل أراضي المملكة؛ من النرويج شمالا حتى سلاسفيغ (Slesvig) جنوبا، وكان طاقم الأسطول يتكون إجمالا من 2451 شخصا. من بينهم 516 جنديا تحديدا؛ كان حوالي 3000 بحارا نرويجيا ودانماركيا أبحروا صوب مدينة الجزائر تحت قيادة سكوتبيناشت كريستيان كاس Schoustbynacht Christian Fredik Kaas²، (1725-1803). وفي الطريق واجهت قوات هذا الأسطول الكبير مشاكل أثناء تسليح السفن خلال شتاء عام 1769-1770.

حيث كان من المفترض أن تنطلق الغليوطنان اللتان سبق ذكرهما من قبل بأشهر عديدة من أجل حماية السفن التجارية الدانماركية- النرويجية في البحر الأبيض المتوسط. لكن ولأسباب موضوعية انطلقت الغليوطنان في الأخير مع بقية سفن الأسطول. علاوة على ذلك فإن تسليح هتين الغليوطنين بالقنابل كان قيد التجربة. بحيث لم تكن البحرية الدانو- نرويجية تحتوي على أي من

¹ للإطلاع على الرواية المحلية حول هذه الحرب أنظر محمد بن محمد بن عبد الرحمان بن رقية التلمساني: الزهرة النيرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، نشر مجلة تاريخ وحضارة المغرب، ع 3، يوليو 1967. وكذلك عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، د.م.ج، الجزائر، ص ص 239-240.

وجون.ب. وولف: الجزائر وأوروبا، تر وع أبو القاسم سعد الله، م.و.ك، الجزائر، 1986، ص 21 ومايلها.

² رتبة أميرال.

هذا النوع، لقد اضطرت إلى إعادة سفينتين مدنيتين لهذا الغرض، كما كانت تفتقر إلى طاقم ذي خبرة في صناعة الغليوطات المقنبلة، فكان يتوجب عليها العثور على الجنود المتخصصين في سلاح المدفعية والعمل على تدريبهم بأسرع ما يمكن – كما أنه لم تكن لديها سفينة مناسبة لهذا العمل. وحتى قبل الإنطلاق، كانت القوات البحرية تعاني من ضعف كبير. علاوة على أن إدارة الشؤون الخارجية لم تأخذ بعين الاعتبار أحد أقدم مبادئ الحرب البحرية المتمثل في: أن السفن لا يمكنها أن تستولي على المدينة أو القلعة لأن مدفعية المدينة دوما تكون الأكثر ارتفاعا. ولقنبلة مدينة مثل مدينة الجزائر بفعالية لا بد من أن تكون هناك زاوية معينة للإطلاق، لأننا لا نمتلك التقنية اللازمة لتغطية انسحابنا. حتى تلك السفن المصنوعة خصيصا للقنبلة فإنه كان علينا توقيفها وسحبها بعد عدد محدود من الطلقات من أجل إصلاحها. فتجمع القوات البحرية مع القوات البرية وحده الكفيل بغزو مدينة مثل مدينة الجزائر. وكان عدد قوات الأسطول المقدر بحوالي 500 جندي وهو عدد قليل لا يمكنه بأي حال من الأحوال السيطرة على هذه المدينة.¹

وفي الواقع كان الاتحاد الدانو- نرويجي قد أرسل قوة بحرية غير قادرة سوى على مراقبة تحركات الداوي. فهذه السفن لا يمكنها على الإطلاق أن تشكل أي خطر حقيقي على مدينة الجزائر. وعلى أية حال لا يمكننا أن نرتاب من أي شيء قبل الأوان، فالقوة البحرية غادرت كوبنهاغن يوم 2 ماي 1770. ومرت في اليوم السادس من نفس الشهر أمام ليندسن (Lindesnes) في النرويج. وقبل الوصول إلى مضيق جبل طارق واجهت هذه القوات أول عدو، هذا العدو لا يتمثل في القراصنة الجزائريين، ولا في مدافع دولة اللصوص، إنه وباء التيفوس الفتاك الذي ظهر على

¹ كانت مدينة الجزائر خلال العهد العثماني من أكثر مدن البحر المتوسط حصانة ومناعة، حيث كان الحكام حريصين على تحصين دفاعاتها، وكان لهزيمة الإمبراطور الإسباني شارلكان أثناء حملته الشهيرة على مدينة الجزائر وقع شديد في القارة الأوروبية بأسرها، حيث بات من المؤكد أن غزو هذه المدينة أمر في غاية الصعوبة، وبالنسبة للجزائريين فقد أحيطت هذه الهزيمة بالقصص الغريبة والأساطير وأصبحت منذئذ تعرف بالجزائر المحروسة والجزائر المحمية، وظل هذا الاعتقاد سائدا حتى الاحتلال الفرنسي سنة 1830 حيث ساعدت هذه الفكرة كثيرا الفرنسيين في احتلالهم للمدينة. لمزيد من التفاصيل حول دفاعات المدينة وتحصيناتها راجع:

متن سفينة الخط مارس والغليوطتين؛ لقد قضى الكثير من الجنود نحبهم بسبب الغرغرينة التي ظهرت بسبب البرد الشديد والخبز الحامل للبكتيريا. وكان مصدر التيفوس سفينة روسية قدمت من بحر البلطيق حيث وقع الاتصال بها عن طريق طاقم السفينة، أو أن البكتيريا كانت في الماء الشروب الذي جلب من كوبهاغن، المصدر الشهير للوباء، وشيئا فشيئا انتشر الوباء في كل سفن الأسطول المتجه نحو مدينة الجزائر.

كان القس الذي كان يعمل على متن السفينة المستشفى التي كانت تنقل المرضى أول ضحية لهذا الوباء، فقام الطاقم برمي جثته في البحر كما جرت العادة، لكن الجثة كانت تطفو على السطح حيث أمكن للبحارة رؤيتها في اليوم الموالي، لأنهم لم يضعوا الحجارة في النعش وكانت تبدو كأنها تسبح مع الأسطول مما جعل البحارة يفسرون ذلك بسذاجة أنه فال سيئ، وتوجسوا خيفة مما كان ينتظرهم في هذه المواجهة، وعلى أية حال فقد جرت الرحلة في ظروف سيئة حتى قبل الدخول إلى البحر المتوسط. حيث الوباء الفتاك والموت كان يتبع السفينة التي كانت تحمل نحو 20 ضحية ومئات المصابين عندما غادرت مضيق جبل طارق. وكان على متن السفينة "الأميرة صوفيا" قس آخر يدعى هيغو فريدريك هيورثوي (Hugo Fridrich Hiorthøy) الذي كتب في يومياته يقول: "في يوم 21 جوان قامت سفينتنا عند الإشارة بسحب السفينة المستشفى وعند هبوب رياح من الجهة الخلفية اشتم الحراس رائحة كريهة ومتعفنة قادمة من هذه السفينة التي أصبحت مكتظة ولا يوجد أمكنة أخرى للمرضى، حيث كان هناك عدد كبير من المصابين وكان على كل سفينة أن تحتفظ بمرضاهم".

وفي يوم 24 جوان أجرى هذا الراهب اتصالا بالسفن الأخرى وأعلن عن مواصلة الرحلة نحو شرق البحر المتوسط. وفي اليوم الثاني من شهر جويلية وصلت الحملة إلى ميناء الجزائر، أين أمكن قائد الأسطول "سكوتبيناشت كاس" أن يلاحظ بخيبة أمل أن الاستعدادات الدفاعية لمدينة الجزائر تبدو أكثر قوة ومقاومة مما كان يتوقع.

كان الأسطول الدانو-نرويجي يضم عددا كبيرا من المدافع وكميات البارود وهو مستعد للبدء في الهجوم. لكن الدانو-نرويجيين لم يشأوا أن تتحطم قواتهم في أول مواجهة، فكان قائد الأسطول "كاس" يأمل في أن يتراجع الداى عن قرار إعلانه الحرب وإحلال السلم مع الاتحاد الدانو-نرويجي.

وفي يوم 3 جويلية تقدم قارب صغير مع علم أبيض نحو الأسطول الدانو- نرويجي يحمل على متنه عددا من مستشاري الداى مع القنصل الفرنسي الذي جيء به ليقوم بعملية الترجمة بين الطرفين.

فتحدث قائد الأسطول مع مبعوث الداى واستفسره عن الأسباب التي دفعت حكومته إلى نقض معاهدة السلم مع بلاده منذ سنة؛ فأجابته هذا المبعوث أن الداى مستاء من الاتحاد الدانو- نرويجي بسبب سماحه للسفن التجارية التابعة لمملكة هامبورغ مستعملة علم الاتحاد. علاوة على أن كمية البارود التي قدمها الاتحاد الدانو- نرويجي كهدايا للداى كانت من النوع الرديء. فإذا كانت هذه الأسباب غير كافية، فإن القدوم بأسطول حربي إلى مدينة الجزائر لإرغام الداى على إبرام السلم يعتبر إهانة شخصية لهذا الأخير. حينئذ لم يظهر أي طرف أي نوع من التنازل.

فاندلعت إذن الحرب في بداية شهر جويلية من عام 1770. (بعد ذلك وجهت انتقادات لاذعة إلى قائد الأسطول كاس الذي لم يتحل بالدبلوماسية اللازمة وكونه كان يستعمل أسلوب التهديد في تعامله مع الجزائريين، علاوة على عدم فعالية المهلة التي منحت للداى والتي حددها بأربع وعشرين ساعة، فلم تكن كافية، فكان ينبغي عليه أن يكون مُدركا أنه في موقف لا يسمح له بتوجيه هذا النوع من المطالب، وبالتحدث مع ممثل الداى بهذه الكيفية). فكان الجزائريون هم أول من بدأ المعركة؛ حيث أرسلوا أسطولا صغيرا يتكون من بضعة سفن من نوع الغالير¹ والشباك² لمهاجمة القوات الدانو- نرويجية، لكن الدانو- نرويجيين سحبوا قواتهم بحيث أصبحت مقابلة لدفاعات المدينة: فاضطر الجزائريون إلى الانسحاب فورا والعودة إلى الميناء. وعلى الفور قام قائد الأسطول كاس بالرد من خلال وضع قواته في وضعية الهجوم، لكن فجأة هبت رياح قوية منعت السفن من الاقتراب كفاية للتمكن من إطلاق القنابل على المدينة بنجاح.

¹ Galère نوع من سفن التجديف تحتوي على أشرعة كان يستعمل في العصور القديمة حتى القرن 18م في الحروب وفي التجارة. Dictionnaire super major, Larousse, Paris, 1997, p494.
² Chebec سفينة صغيرة كانت تستعمل بين القرنين السابع عشر والثامن عشر في البحر المتوسط تعتمد على التجديف والأشرعة وتستخدم في التجارة والحروب ويمكنها أن تحمل على متنها مدافع.

كيف كانت الحالة على متن السفن الدانو- نرويجية؟ يصف لنا الكاهن هيورثوي (Hiorthøy) الذي كان متواجدا على متن السفينة "الأميرة صوفيا ماجدالينا" الوضع قائلا: "كان طاقم الأسطول مخلصين وكانوا يأملون أن يمضي الوقت بسرعة لإنهاء ما جاؤوا من أجله وهو مهاجمة القلاع، وأما أنا والآخرون فقد كنا نشعر تارة بقرب نهايتنا وتارة أخرى لا يخامرنا نفس الشعور. الجنود المؤمنون طلبوا مني إبلاغ ذويهم سلامهم في حالة ما بقيت على قيد الحياة وأنهم فارقوهم من أجل التحاقهم بأماكنهم للقيام بالواجب.

بدأت قنبلة مدينة الجزائر على يد القوات الدانو - نرويجية بين الساعة الرابعة والسادسة من ظهيرة يوم 6 جويلية، واستمر القصف إلى الساعة الرابعة من صباح يوم الغد، أُلقت خلالها الغليوطتان المقبلتان 35 قنبلة على مدينة الجزائر. وفي الوقت نفسه أطلقت سفينة الأدميرال عدة طلقات، رد عليها الجزائريون بإطلاق قذائف مدافعهم والقنابل التي كانت تأتي من القلاع المتواجدة في الميناء؛ ولكنهم لم يتمكنوا من النيل من السفن الدانو- نرويجية أو إلحاق أي ضرر بها.¹ لكن ماذا كان يحدث داخل مدينة الجزائر؟ يزودنا نرويجي آخر بالمزيد من المعلومات الدقيقة، إنه البحار "نيلز نيلسون موس" الذي كان أسيرا في هذه المدينة منذ خريف عام 1769 حيث كان على متن السفينة "جومفري كرسيتينا" التابعة لمدينة تروندهايم التي وقعت في قبضة القراصنة الجزائريين.

فقد كتب هذا الأسير يقول: "أحيانا كان على المسيحيين العمل بدون توقف؛ فكانوا يُسَخَّرُونَ لحمل الحبال وأكياس الصوف التي كانت تستخدم لحماية الجنود المتواجدين في الأبراج والتحصينات، والأسوار وأماكن أخرى؛ هذه المواد يمكنها أن تحميهم من القذائف. وعلاوة على ذلك كنا نقوم بمساعدة مسيحيين آخرين في نقل المدافع، ومدافع الهاون، والقذائف والقنابل، لأنهم كانوا ينتظرون هجوما كبيرا على يد الدانماركيين".

هكذا إذن عاش الأسير النرويجي هذه الحرب. وقد كتب مواطنه القس "هيورثوي" يصف الليلة الأولى في هذه الحرب في قوله: "كانت الليلة مثل الألعاب النارية؛ كنت أشاهد قنابلنا تتساقط على

¹ تم تخريب الممتلكات وسقط عدد من القتلى جراء القصف، لكن التقارير الدانو- نرويجية لا تتحدث عن الخسائر الجزائرية في هذه الحرب.

المدينة بدقة؛ ورأيت إحداها وهي تلمع من المحتمل أنها انفجرت عند سقوطها على الأرض لأنني لم أتمكن من رؤيتها جيدا عند سقوطها على الأرض."

وبما أن القس هيورثوي يمثل الدين الذي يركز على الرأفة والإحسان فإنه أظهر تعاطفه مع السكان المدنيين الذين كانت تتوجه إليهم القنابل الدانو-نرويجية. وكان متواجدا في مكان المعارك حيث كان دائما يتلو نصوصا من الإنجيل على الجنود لتشجيعهم، وكان قبل خوض المعارك يتوسل إلى الله أن ينصر الجنود قبل أن ينتصبوا أمام مدافعهم. لكن يوميات القس النرويجي لا تكشف لنا عن أي تعارض بين قنبلة مدينة ونصوص الإنجيل.

فقد كان القس هيورثوي رجل عصره حيث امتزجت الحرب السياسية بالدينية. فكان قلقا بطبيعة الحال على مواطنيه: حيث يقول: "عندما كنت أعمل داخل السفينة كانت درجة الحرارة خانقة ودخان البارود كان كثيفا إلى درجة أصبح جلد يدي يتهاوى وكذلك وجهي. ولما كان هناك الكثير من القمل داخل السفن بعد رؤيتي للمرضى فقد امتلأ ردائي بعد أن قمت بالاطلاع على حالة المصابين، إنه لمن المستحيل علي أن أتخيل المعاناة التي قاساها الضباط وكذلك البحارة في هذه الحملة.

وقد سمحت لنا التقارير التي كانت تحرر على سطح السفن من تتبع كل مراحل قنبلة المدينة. فعلى سبيل المثال، على الساعة منتصف الليل والرابع، بدأت قنابل النقيب كيرولف (Kierulff) تصيب أهدافها: حيث أصابت قنبلة القلعة الموجودة في المول، وأصابت قنبلة أخرى المدينة. وأطلقت القنبلة الثانية عشر على الساعة الثانية وخمس دقائق صباحا لكنها سقطت جهة الجنوب فلم تصب أي شيء. وضربت القنبلة الثالثة عشر المدينة؛ الجميع أشار إلى ذلك حسب سجل وقائع السفن. وقد اعتبرت القنابل الأربعة عشر التي اطلقتها الغليوطة¹ باك أن (Pak An) كلها مصيبة لأهدافها.

¹ هي نوع من السفن الحربية تسمى بالفرنسية Galiote كانت تستعمل في الجزائر خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، وهي قارب تجديد يحمل صارتين، وخلال القرن السابع عشر أصبحت تعرف بالقارب الشراعي، وهي سفينة متوسطة الحجم. (المترجم)

وفي يوم الغد هبت الرياح القوية مما جعل الغليوطات المقبلة لم تتمكن من القيام بأي عمل، لكنها عادت إلى القنبلة يوم 8 جويلية. حيث أطلقت هذه الغليوطات المقبلة حوالي 40 قنبلة جديدة على مدينة الجزائر.

وكانت السفن الغالير الجزائرية السريعة تهدد الأسطول الدانو- نرويجي من حين لآخر حيث كانت تحاول أن تقترب منه، لكن سفن دانو- نرويجية أخرى تمكنت من ردها وأرغمتها على الانسحاب والتراجع. وفي اليوم الموالي (9 جويلية) أعطى قائد الأسطول الأمر بسحب الغليوطتين المقبلتين خشية أن تتسرب النيران إليهما من فوهة الإطلاق فتفجر مخزون البارود، وفي الوقت نفسه أرسل الجزائريون خمسًا من سفن الغالير وست سفن من نوع الشباك نحو الأسطول الدانو- نرويجي، لكن سفينة الأميرة صوفيا ماجدالينا التي كان على متنها القس هيورثيو تمكنت من توقيفها.

كانت الحملة من وجهة نظر الدانو- نرويجية إلى حد الآن فاشلة، كما أن الداوي لم يقدم أية تنازلات، ولم تحقق قنبلة المدينة النجاح المرجو. وفي النهاية زاد هبوب الرياح من تعقيد الأمور على الأسطول الدانو- نرويجي، وفي يوم 12 جويلية كانوا يريدون الاقتراب من المدينة أكثر لكي تكون القنبلة فعالة، لكن فجأة هبت رياح شمالية قوية فخشي قائد الأسطول "كاس" أنه إن دفع بكل سفن الأسطول نحو البر فإن كل الطاقم سيقعون في قبضة الجزائريين كعبيد.

حينئذ استدعى كل الضباط وأخبرهم أن مدينة الجزائر مدينة ممتنعة وأن العمل الوحيد الذي بقي عليهم القيام به هو إصدار الأمر بالانسحاب التام. وفعلا غادرت القوات الدانو- نرويجية مدينة الجزائر يوم 15 جويلية متجهة نحو ميناء ماهون بجزيرة مينوركة، حيث تم إنزال ألف مصاب بناء على تصريح طبيب كان على متن الأسطول وهو ما يعادل ثلث القوات، ونظرًا لأنه ليس هناك متسع للجميع فقد ترك ربع المصابين في العراء عرضة لأشعة الشمس والرياح مما كان يتسبب في هلاك بحارين أو ثلاثة في كل يوم.

بعد ذلك بوقت قصير تم إرسال سفيني مارس وهافروان لمراقبة مضيق جبل طارق ومنع سفن القراصنة الجزائريين من الحصول على الغنائم. وأما السفينتان سلاسفيغ وكريستيانزوي فقد تم إرسالهما إلى منطقة ميناء الجزائر لضمان بقاء المدينة محاصرة خلال مدة الحرب، وقد اتجهت

د. لخضر بوطبة نيلز نيلسون موس: أسير نرويجي في مدينة الجزائر (1769 - 1772)

سفينتا الخطوط المتبقية وكذلك غليوطتان تم إعطاء الأمر بعودتهما إلى أرض الوطن في خريف سنة 1770، أما السفينة الأميرالية برانس فريدريك فقد غرقت في ميناء ماهون، ولما كانت الغليوطات غير قادرة على الإبحار فلم تتمكن من العودة إلى كوبنهاغن حتى سنة 1771. بعد هذا الحصار صرح الداى أنه طالما بقي على كرسي الحكم لن يتصالح مع الاتحاد الدانو-نرويجي أبدا.¹

يُتبع

....

¹ يبدو قائد الأسطول كاس أنه لا يبحث عن حل لهذه الأزمة حيث نجده يقترح على حكومة كوبنهاغن إرسال تعزيزات أخرى إلى البحر المتوسط للقيام بمحاولة ثانية في السنة الموالية لمهاجمة الجزائر وإرغام حكومة الجزائر على إبرام معاهدة السلم، وفي الواقع لم يكن الاتحاد الدانو-نرويجي القوة الوحيدة التي كانت ضحية سوء تقدير للقدرات الدفاعية لمدينة الجزائر ولن تكون الأخيرة، حيث نظمت إسبانيا حملة بحرية قوية سنة 1775 كانت تضم حوالي 40 سفينة حربية كبيرة وصغيرة الحجم كانت تحمل على متنها 20000 جندي منهم 4000 فارس بالإضافة إلى 368 سفينة تموين، وكانت أسباب الحرب شبيهة بسبب الحرب مع الاتحاد الدانو-نرويجي خرق معاهدة السلم وقرصنة وافتداء الأسرى، وبطبيعة الحال مني الإسبان بالهزيمة.